بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 23 يناير 2017

جغرافيا الفردوس

لطيفة كرعاوي
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

جـغـرافـيا الفـردوس[1]

[1] يمثّل هذا العمل الفصل الثالث من كتاب «الفردوس والجحيم في المتخيّل الإسلامي» ـ تأليف: لطيفة كرعاوي ـ منشورات مؤسّسة «مؤمنون بلا حدود» للدراسات والأبحاث، والمركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، الطبعة الأولى 2014

الملخّص:

درست لطيفة كرعاوي في هذا الفصل جغرافيا الفردوس باعتباره يمثّل في المتخيّل الإسلامي عالما مشخّصا ماديّا. وركّزت اهتمامها على عدد من القضايا وهي: الحياة الجنسيّة في الفردوس، ومياه الفردوس ونباته، فضلا عن التعريف بسكّان الفردوس. لذلك تتبّعت المؤلّفة مختلف صور حضور حوّاء في فردوس الرجال (الصورة الآدميّة، الطبيعة النورانيّة، الجسد الكريستالي، المرأة العاشقة، المرأة المستهلَكة جنسيّا...). واستنتجت المؤلّفة من ذلك أنّ هذه الصور معبّرة عن تركيبة ذهنيّة ذكوريّة بامتياز. وحاولت المؤلّفة بالاستناد إلى مصادر دراستها الإجابة عن السؤال التالي: هل هناك تناسل وإخصاب في الفردوس؟ ثمّ عرّجت الباحثة على صور حضور الماء في الفردوس من خلال وصف الأنهار والعيون وما تنهض به من وظيفة تطهيريّة عبر الاغتسال بمائها. وتتبّعت مظاهر حضور النبات في الفردوس، فشدّدت على أنّ من ميزة شجرة الفردوس أنّها غير خاضعة لعامل الزمن (شجرة طوبى مثلا لا تيبس أغصانها ولا تسقط أوراقها). أمّا سكّان الفردوس فَهُمْ أساسا وحصرا المؤمنون بوحدانيّة الله وبوجود العالم الأخروي. وهنا تحدّثت لطيفة كرعاوي عن أهمّ سكّان الفردوس مثل الرسول (صورة الآمِر والشفيع) وأمّة محمّد (هي أوّل من تعبر الصراط...) الآخر من الأمم الأخرى سواء أكانوا من الأنبياء أم من غيرهم. ولعلّ أبرز استنتاج خلُصت إليه المؤلّفة هو الفردوس يعبّر عن حلم كلّ مجموعة بشريّة تؤمن بوجود اليوم الآخر.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً) [1] [**قرآن كريم**].

قال النبي(ص): «ألا هل مشمرٌ للجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها[2] [...] هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصرٌ مشيدٌ، ونهر مطردٌ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرةٍ، وحبرةٍ ونعمةٍ في محلة عالية بهية. قالوا: نعم، يا رسول الله، نحن المشمرون لها»[3].

مقدّمة

قيل: إن الفردوس الإسلامي فيه من النعم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[4]. والمفارقة أننا مع الكتب التي صنفت لوصف الجنة صار لنا علم بأدق تفاصيل الفردوس[5]، فوصفت ما خطر على القلب وما طال العين والأذن، فأصبحنا أمام عالم مشخص ماثل أمام الأعين، تماماً مثلما يشخّص أديب عالمه الروائي؛ وبما أنه يعسر درس تلك التفاصيل في هذا الحيز، آثرنا مقاربة بعض المسائل دون سواها مثل التطرق للحياة الجنسية في الفردوس باعتبارها منتهى النعم الأخروية. ثم ركزنا على مبحثين آخرين متصلين بمياه الفردوس ونباته باعتبارهما أنموذجين لامتداد الفكر الأسطوري في التراث الديني الإسلامي، وآثرنا أخيراً معرفة من هم سكان الفردوس، فوصف هذا الفضاء الجغرافي المتخيل[6]، كما سنرى، لم يخرج من مجرة العالم الإسلامي بتركيبته الذهنية والمجتمعية، وما الفردوس الموصوف إلا استجابة لأفق انتظار المسلمين، إذ تمت أسلمته، فلا مكان فيه لمؤمن لا يملك صك عبور خُتم بختم إسلامي.

---

1 الإنسان 20/76

2 لا مثيل لها.

3 **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 8، ص 3764

4 لا ندري بعد إن كان هذا القول حديثاً نبوياً أم لا، فقد ذكر أركون أن هذا الحديث هو «الصياغة المشهورة للقديس بولس، طالما استشهد بها الصوفيون كما الفلاسفة بصفتها حديثا نبويا، إنها تشهد على تعميم طراز من الإدراك الذي ينشط اللامرئي والخيالي ويحبذه»، **الفكر الإسلامي قراءة علمية**، م.م، ص 209. وسنعود للتعليق على هذا الحديث في الفصل الأخير من البحث.

5 الحديث مثلاً عن شساعة الفردوس الذي يمتد على مائة درجة، تبتعد الدرجة عن الأخرى نحو خمسمائة سنة، وعن أبوابه العديدة وكثرة القصور فيه وأحجاره الكريمة ووفرة حلله وتنوع أكله وشرابه وغير ذلك من النعم.

6 إذا كانت الجغرافيا العربية الكلاسيكية بأقسامها العديدة قد اهتمت بتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم وتحديد أطوال المدن وأعراضها ووصف المدن بالتركيز بخاصة على المجموعات البشرية مع عناية بوصف الحيوان والنبات والمعادن وبخاصة وصف العجائب والغرائب، فإن كل المصنفات التي عنيت بوصف العالم الآخر ليست سوى جغرافيا عالم مفارق لنا. فإذا كان هذا العالم الذي ندركه قد قسم في وقت ما إلى سبعة أقاليم فإن الجنة بدورها، وكذا النار، قسمت إلى سبعة أقاليم أو أقسام أو طبقات، ومثلما وصفت هذه الأرض التي نحن عليها وصف "الكوكب الآخر" بسكانه وجباله وخنادقه وأوديته وبحاره وصهاريجه وآباره وجبابه وتنانيره وسجونه وبيوته وجسوره وقصوره. وهذا ما شرع لنا استعمال مصطلح "جغرافيا". أما عبارة "فردوس" فقد تعاملنا معها على اعتبارها مذكر. قال أهل اللغة: الفردوس مذكرٌ وإنما أُنّث في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) المؤمنون 23/11، "لأنه عنى به الجنة. وفي الحديث نسألك الفردوس الأعلى". ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج 5، ص 3375، مادة (فردس).

1. حواء وفردوس الرجال

مثلما اهتمت العديد من المصنفات الإسلامية الكلاسيكية بالحياة الجنسية في عالم الشهادة[7]، إذ كان القدامى متسامحين مع رغباتهم ومتفاعلين معها، فكان خطابهم عن الجنس صريحاً ودقيقاً وواضحاً ومعبرا عن ثقافة لها «فن شبقي» على حد عبارة فوكو، اهتمت أيضاً مصنفات عالم الغيب بذلك. ولعلّ أول ما يلفت قارئ تلك الكتب هو وصف العالم الملذاتي الفردوسي وقد أثثته حواء كيفاً وكماً.

فكيف صورت حواء الفردوس؟ وكيف وصفت الحياة الجنسية في هذا المكان؟

تعتبر حواء الفردوس آدمية في بعض وجوهها استناداً إلى قول السيوطي: «فيأكل هو وزوجته الآدمية»[8]، وهي ليست كذلك في وجهها الآخر، لأنها من طبيعة نورانية، وهو حال الحور العين[9]، ولقد عمل المصدران على وصف هذا الكائن الأنثوي وصفاً دقيقاً وبليغاً، يمكن تصنيفه صنفين: صنف مرتبط بالجانب الفيزيولوجي، وصنف آخر يتعلق بالجانب السلوكي والقيمي.

يبرز وصف الحور فيزيولوجياً من خلال تجليات عدة؛ فلقد «خلقهن الله تعالى من نور»[10]، وألوان وجوههن تتراوح بين «أبيض وأخضر وأصفر وأحمر»[11]، وأجسادهن جماع خليط عجيب من الزعفران والمسك والعنبر والكافور[12]، وشعر الحورية «من القز، ومن أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران والطيب، ومن ركبتيها إلى ثديها من المسك، ومن ثديها إلى عنقها من العنبر، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور»[13].

وهي «كريستالية» الجسد حيث «يُرى مخ ساقها من وراء لحمها وعظمها وجلدها كما يُرى الشراب الأحمر من الزجاج الأخضر»[14]، وتتميز بشدة البياض وصفاء اللون، لهذا تشبّه بالياقوت والمرجان واللؤلؤ، وهي

---

7 من هذه المصنفات نذكر: **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب** لأحمد بن يوسف التيفاشي (تـ 665هـ/1257م)، **تحفة العروس ومتعة النفوس** لمحمد التيجاني (تـ 709هـ/1309م)، **الروض العاطر في نزهة الخاطر** لمحمد بن عمر النفزاوي (تـ 852هـ/1411م). وللتوسع انظر ما ذكره عبد الوهاب بوحديبة بخصوص مثل هذه الكتب في الفصل الحادي عشر من القسم الثاني من كتابه: **الجنسانية في الإسلام**، تعريب محمد علي مقلد، دار سيراس للنشر، تونس، ص 177-205

8 **الدرر الحسان**، ص 43

9 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

10 **دقائق الأخبار**، ص 41. انظر **الدرر الحسان**، ص 43

11 **دقائق الأخبار**، ص 43

12 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

13 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

14 المصدر نفسه، ص 41. انظر الشاهد نفسه في **الدرر الحسان**، ص 27

عذراء دائماً تتجدد بكارتها بتجدد الفعل الجنسي فيها[15]، إضافة إلى هذا تتميز بجمال الصوت ورقته وعذوبته[16]. وهذا يعني أن جسد حورية الفردوس يحافظ على شكل جسد الأنثى في الدنيا، لكن مكوناته تتغير وتحور.

بالتوازي مع ذلك، حرص المصدران على وصف الجانب السلوكي الأخلاقي لحواء الفردوس، فهي تنتظر الرجل وتستقبله: «فتخرج كل حورية إلى صاحبها فتعانقه»[17]، «فإذا دخل المؤمن منزله تتلقاه الحور العين وتقول له طال شوقي إليك يا ولي الله، الحمد الله الذي جمع بيني وبينك، فيقول لها: من أين تعرفينني وما رأيتني قبل هذا؟ فتقول له: إن الله قد **خلقني لك** وكتب اسمك على صدري»[18].

وهي عاشقة له ودائماً ما تثني عليه، إذ ورد أن «جميع الحور **عاشقات** لأزواجهن»[19]، وهي المطيعة والمجيبة والمحققة للرغبات. تخاطب الحورية المؤمن قائلة: «يا ولي الله نحن من الذين قال الله فيهم ولدينا مزيد»[20]، فكل أنثى لديها المزيد من المتع عمن سبقتها. وهي المكنونة البعيدة عن كل الأنظار، فالحور مقصورات أي محذورات مستورات في الخيام[21]، وهي لا تنظر إلى أحد سوى رجلها فهن قاصرات الطرف[22].

وهي التي تطرب ما إن غنت «يقول الله تعالى للحور العين: اطربوا عبادي كما نزهوا أسماعهم عن المطربات في الدنيا»[23]. وإذا كان الغناء مظهراً من مظاهر الفجور والفسوق في التصور الديني، فإن العازف عن تلك المجالس في الدنيا، سيعزف له في الفردوس في مجالس طرب أمتع وأجمل بفضل جمال الحور وطرب أصواتهن وبفضل آلات موسيقية مميزة جداً «فتحضر مغاني من الحور العين والمزامير معلقة في أغصان الشجر، كل شجرة تحمل في كل غصن سبعين ألف مزمار، وتهب الريح من تحت العرش فتدخل في تلك المزامير فيسمع لها نغمات لم يسمع السامعون أحسن منها»[24].

---

15 انظر **دقائق الأخبار**، ص 41

16 انظر **الدرر الحسان**، ص 27، ص 43

17 **دقائق الأخبار**، ص 43

18 **الدرر الحسان**، ص 39

19 **دقائق الأخبار**، ص 43

20 **الدرر الحسان**، ص 42. انظر مثلاً كيف تم تأويل الآية التالية: (لَهُمْ مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)، ق 35/50، أي مهما اختار المؤمن في الجنة وجد: روي عن كثير بن مرة قوله: «من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشيء إلا أمْطرتْهمْ. قال كثير: لئن أشهدني الله ذلك لأقولن: أمطرينا جواري مزيناتٍ»، **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 7، ص 3295. وانظر أيضاً تأويل آية (للذين أحْسنوا الحسْنى وزيادةٌ) يونس 26/10، قيل بمعنى رؤية الله، وقيل يوم الجمعة هو يوم المزيد. وقيل أيضاً في معنى ولدينا مزيد المزيد من نساء الفردوس، فما أن يهنأ رجل مع امرأة حتى تأتيه حسناء فتسلم عليه وتخبره أنها من المزيد، **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 7، ص ص 3295-3296

21 انظر **دقائق الأخبار**، ص 43

22 انظر المصدر نفسه، ص 41

23 **الدرر الحسان**، ص 36

24 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والمتأمل في الكلمات المتغنى بها من قبل الحور يلاحظ الالتزام الأنثوي بتوفير المتعة دون سقم ولا ضجر: «نحن الخالدات فلا نفنى أبداً، نحن الناعمات فلا نيبس أبداً، نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، نحن المقيمات فلا نظعن أبداً، نحن الكاسيات فلا نعرى أبداً، نحن الضاحكات فلا نبكي أبداً، نحن الصحيحات فلا نسقم أبداً، طوبى لمن كان لنا وكنا له»[25].

وأنثى الفردوس هي المفعول بها والمستهلكة جنسياً، فلكل رجل سبعون فراشاً على كل فراش امرأة[26]، وفي نص آخر: «يتزوج المؤمن بسبعين حوراء»[27] أو «لكل ولي سبعون حورية، على كل حورية سبعون حلة يتمتع ولي الله بكل ما أراد منهن»[28]. هذه الوفرة في الأجساد، وهذا الكم الأنثوي الموهوب لرجل الفردوس، يتماشى وطاقاته الجنسية العجيبة، فقد أعطي قوة مئة رجل «في الأكل والشراب والجماع»[29]، وله ذكر في حالة انتصاب دائمة[30].

في ضوء ذلك يحوّر مفهوم اللذة الجنسية في الآخرة إذ ليس هناك مني في الفردوس. وإن كان هذا القول يؤكد مفهوم الطهارة، فإنه يعني أيضاً ليس هناك إهدار لأية طاقة، فتتحول اللذة الجنسية إلى متعة تتسم بالديمومة، وفي ذلك يقول ابن أحمد القاضي إن الرجل يجامع أنثاه «كما يجامع أهله في الدنيا حقبا، والحقب ثمانون سنة لا مني ولا منية»[31]. ويضيف السيوطي: «وله في كل دفعة شهوة ولذة لو وجدها أهل الدنيا لغشي عليهم من شدة حلاوتها»[32].

إن ما نستنتجه من كل ما تقدم هذا الفيض من الجمال، فلا أجمل من صورة حواء بارعة الجمال لينة الأطراف، تتثنى تثني الخيزران، تنتظر المسلم ما أن تستفتح الجنان، ولا صورة غيم يمطر جواهر فيتعلق بكل جوهرة حوراء[33]، ولا صورة حبة ثمار تخرج من وسطها الكواعب الأتراب[34]. ومن ناحية أخرى، يبدو رجل الفردوس مرغوباً فيه، فكل المتع الفردوسية موظفة لصالحه، فحواء هي من تسعى إليه وهي من تتودد وتعمل على إرضائه، وهو المفترع لها والمستهلك لجمالها وجسدها، والأنثى بهذا الجسد البارع الجمال وبهذه الكثرة وبهذا التنوع تشبع نهماً ذكورياً وتبسط النفس وتمتعها.

---

25 المصدر نفسه، ص 43
26 انظر **دقائق الأخبار**، ص 43
27 انظر **الدرر الحسان**، ص 27
28 المصدر نفسه، ص 33
29 **دقائق الأخبار**، ص 44
30 انظر **الدرر الحسان**، ص 27
31 **دقائق الأخبار**، ص 44
32 **الدرر الحسان**، ص 27
33 انظر **دقائق الأخبار**، ص 42
34 انظر **الدرر الحسان**، ص 42

وجلي أن حضور المرأة الفردوسي لا يختلف عن نظيره الدنيوي حيث هناك دائماً ذكر آكل وأنثى مأكولة، وما المتخيل إلا ترجمان لتركيبة ذهنية ومجتمعية لثقافة ذكران، لهذا يهتم بالبكارة التي تكتسي قيمة كبرى بالنسبة إليه، وما افتراعه لهذا الكم الهائل من الحور إلا إبراز لفحولته وقد زود بطاقة حيوية عجيبة.

والحاصل أن المتخيل الإسلامي استلهم صوره العديدة المرتبطة بالحور من **القرآن**[35]، وخطابه في ذلك استراتيجي لأنه خاطب المسلمين وفق ثقافتهم وبلغة وصور تمكنهم من التجاوب معه، وكي يكون له تأثير في نفوسهم وحافزاً على العمل الصالح للفوز بالمتع الفردوسية، فيكون المسلم الصالح حينئذ من المشمّرين كما ورد في الحديث النبوي الذي صدرنا به هذا الفصل.

وإذا كان الفردوس فضاء النعم حيث لا عمل ولا تعب، فإن الشغل الذي يتفكه به[36] رجال الفردوس هو نشاط جنسي بامتياز، «فأعظم به من شغل»[37]، كما قال ذلك المحاسبي وهو يصف حور الفردوس. وقد أنشد الشيخ ابن القيم الجوزية (تـ 751هـ/1350م) أبياتاً عديدة في شغل الفردوس، اقتطفناها من قصيدته المطولة الموسومة بـ «القصيدة النونية»:

ولقد رويـــنا أن شغلـهم الـذي ... جـــاء في يـــس دون بيـان
شغل العروس بعرسه من بعد مـا ... عبثت بـه الأشـواق طول زمان
بالله لا تسـأله عـــن أشغـــالـــه ... تلك الليالي شأنـه ذو شـــان
واضرب لهم مثلا بصب غاب عن ... محبوبـه فـــي شاسع البلدان
والشـوق يزعجـه إليـه ومـــا ... له بلقائه سببٌ من الإمكان
وافى إليه بعـد طـــول مغيبـــه ... عنه وصـار الوصل ذا إمكـان
أتلومـه إن صـار ذا شغلٍ بـــه ... لا والـذي أعطى بلا حسبـــان
يـا رب غفراً قـد طغت أقلامنـــا ... يـا رب معذرةً مـن الطغيـان

35 جاء الحديث عن الحور في سور عديدة: الصافات 37/48-49، ص 38/52، الدخان 44/54، الطور 52/20، الرحمان 55/56-58، 70، 72، 74، الواقعة 56/22-23، 35-37، النبأ 78/33

36 انظر تفسير آية: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) **يس** 36/55، من معاني شُغُل وشُغُل «افتضاض العذارى»، ويذكر الطبري هذه العبارة أكثر من مرة، انظر الطبري (تـ 310هـ/922م، وتاريخ الوفاة مختلف فيه) **جامع البيان في تأويل القرآن**، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ/1992م، مج 10، ص 452-453. وذكر الطبرسي (تـ 548هـ/1153م) أن من معاني شُغُل وشُغُل الاشتغال بافتضاض العذارى، (انظر **مجمع البيان في تفسير القرآن**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، الجزأين 22/21، مج 5، ص 32. وأضاف أن في الفردوس «سبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء» بما في ذلك ثواب الفرج الحور العين (المصدر نفسه، ص 33). انظر ما ذكره فخر الدين الرازي (تـ 606هـ/1209م)، وهو مهم مقارنة بما قاله الطبري، في **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، 1410هـ/1990م، مج 13، ج 26، ص 91-92. وانظر أيضاً ما ذكره ابن كثير (تـ 774هـ/1372م) في **تفسيره**، م.م، ج 7، ص 2951-2952. وانظر ما ذكره البيضاوي (تـ 791هـ/1388م، وتاريخ الوفاة مختلف فيه أيضاً) إذ لم يشر إلى النشاط الجنسي، يقول في تفسير شغل: «وفي تنكير (شغل) وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام، ويعرب عن كنهه الكلام»، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق عبد القادر عرفان، دار الفكر، بيروت، 1416هـ/1996م، ج 4، ص 437

37 المحاسبي (الحارث بن أسد، تـ 243هـ/857م) **التوهم؛ رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة**، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ/2003م، ص 85

ولئن كان الحديث عن المتع الجنسية يعبر عن ترنيمة جميلة تروي جمال الوجود ونبض الحياة، لأن الجنس قوة تشع في الجسد أو هو فن لتحقيق متعة رائعة تنسي الإنسان الإحساس بالزمن ويستبعد شبح الموت، فإن الحديث عن تلك المتع توقف عند تخوم عالم الرجل فلا نجد في المقابل حديثاً عن لذة المرأة ومتعتها، ولا حديثاً يعبر عن تفاعل بين الجنسين، بل بدت الحور مجرد أداة تستهلك ومجرد أجساد غير نابضة بالحركة في الفعل الجنسي أو هي «أصنام كافورية»، على حد عبارة عزيز العظمة، وهذا يعني أن المتخيل الذي وصف هو متخيل يستجيب لأفق انتظار ذكوري. أفلا يمكن مثلاً لمتخيل أنثوي أن يصف متعة دون أن يقيم وزناً للبكارة؟ وأفلا يثير الجمال المرأة أيضاً فتحلم بسبعين رجلاً يفوق حسنهم حسن يوسف؟ وهل لها بـ«أحور» أو «حوري» ينتظرها عندما تستفتح الجنان؟

يتسم فردوس المسلمين بكثرة الحور، فإذا كان لكل رجل سبعون جسداً أنثوياً فهذا يعني أن عدد الإناث في الفردوس أكثر من عدد الذكور، فتصبح الجنة لوحة فسيفسائية حباتها الأجساد الأنثوية. وفضلاً عن ذلك إذا كانت الآدمية الصالحة ستكافأ وستصبح أكثر جمالاً ونضارة وشباباً، فكيف يقع التمييز بينها وبين الحورية، أم أن الحور لسنَ في نهاية الأمر سوى آدميات سيقع عليهن تحول فيزيولوجي على غرار ما حدث لحمدونة وتوفيق السوداء في **غفران** المعري؟

وما يثير الاستفهام أيضاً: هل من إخصاب وتناسل في الفردوس؟ لا إجابة في المصدرين، فهل يعني ذلك أن اللذة الجنسية تطلب لذاتها لا في علاقتها بالإنجاب؟ وكيف ذلك وقد سئل الرسول (ص) عن الجنة فقيل له: «أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال (أي الرسول): «الصالحات للصالحين، تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير أن لا توالد»[38]، ونسب إليه أيضاً قوله: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة»[39]، (وسنه بمعنى كمال سنه، وهو ثلاثون سنة[40]).

ويستوقفنا في الحديث الأول القول: «تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم» فهذا يعني أن لذة الجماع الدنيوية هي نفسها في الآخرة بخلاف ما ذكر في مصدرينا. أما عن مقاييس الجمال الآنفة الذكر فهي تخضع وتتحدد بمعايير جمالية ذوقية معينة من ذلك البياض. فقد اهتم المتخيل الإسلامي ببياض الجسد الأنثوي دون سواه من الألوان، فهل يمكن القول إن السواد هو اللون الغالب في بيئة الصحراء العربية والبياض مفقود

38 **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 7، ص 3218

39 المصدر نفسه، ج 7، ص 3295

40 انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

أو هو نادر وكل ما هو مفقود مطلوب؟ إن هذا المعيار لا أهمية له بالنسبة لمجتمعات متوافر فيها البياض أصلاً[41].

يعبّر الفردوس بهذا الوصف الملذاتي الجنسي عن تحقق أقوى الرغبات الإنسانية دون قيد أو شرط، ويعبر عنها في طبيعتها وفطرتها، وكأن الحديث عن الجنس ههنا هو إعادة تحيين لتجربة مقدسة قام بها آلهة وشخصيات ميثولوجية في العديد من الأساطير، إذ كثيرا ما تحدثت تلك النصوص الأدبية عن طقوس الجنس وعن الآلهة وأنصاف الآلهة وهم يتمتعون بطاقة جنسية خارقة، ولم تكن التصورات الإسلامية بمنأى عن ذلك وهي تصف الطاقة الجنسية العجيبة لآدم مثلاً وللأنبياء على النحو الذي ورد في التفاسير، ولم يشذ عن ذلك مصدرانا إذ الفردوس فيهما فضاء جنسي بامتياز.

2. الماء في الفردوس

يتواتر الحديث عن الماء في الفردوس فهو ينساب سحراً في لذته وصفائه وتنوعه، وآية ذلك وفرة الأنهار والعيون. أما الأنهار فهي عديدة؛ فنهر الحياة يوجد عند باب الفردوس يغتسل فيه عصاة أمة محمد بعدما يشفع لهم «فيخرجون منه شبابا جردا مردا مكحلين كأن وجوههم القمر»[42]، ونهر الرحمة «يجري في جميع الجنان، حصباؤه اللؤلؤ، أشد بياضا من الثلج، وأحلى من العسل»[43]، والكوثر «نهر نبينا محمد عليه السلام، وأشجاره الدر واليواقيت»[44]، أما نهر العرفك فيبيت على شاطئه الحور العين[45]. وهناك نهر الكافور ونهر التسنيم ونهر السلسبيل ونهر الرحيق المختوم[46]، ونهر من ماء غير آسن ونهر من عسل مصفى ونهر من خمر لذة للشاربين ونهر من لبن لم يتغير طعمه[47] «ومن وراء ذلك أنهار لا يحصى عددها»[48].

وأما العيون فقد ذكر ابن أحمد القاضي أن وراء الصراط أشجاراً كثيرة، تحت كل شجرة عينان عجيبتان انفجرتا من الفردوس، يقصدها المؤمنون بعد أهوال القيامة فيخضعون لعمليتين تطهيريتين، فإذا شربوا من العين الأولى يخرج ما في صدورهم «من غل وغش وحسد وزال عنها، فإذا استقر الماء في بطونهم خرج

41 ورد على لسان شاعر أثيوبي قوله: "لماذا كل شيء أبيض: الإله، المسيح، مريم، الملائكة، وهو يخاطب البيض المستعبدين لبني جنسه، ومن ثم لماذا الشيطان أسود لا أبيض ولا أحمر؟ ما أكثر الأسئلة وما أكثر الأجوبة، ولكن كل ما يتعلق باللون كذبة "بيضاء" لا كذبة "سوداء""، نقلاً عن إبراهيم محمود، **جغرافية الملذات**، م.م، هامش ص 389. لمعرفة رموز بعض الألوان انظر مثلاً ما ذكره محمد عجينة في **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها**، ط 1، العربية محمد علي الحامي للنشر، صفاقس، دار الفارابي، بيروت، 1994، ج 2، ص ص 202-199

42 **دقائق الأخبار**، ص 40

43 المصدر نفسه، ص 41

44 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

45 يذكره السيوطي فقط، انظر **الدرر الحسان**، ص 43

46 انظر **دقائق الأخبار**، ص 41

47 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها، **الدرر الحسان**، ص 42

48 **دقائق الأخبار**، ص 41

كل ما كان فيها من فساد وداء وبول فيظهر ظاهرهم وباطنهم»[49]. وإذا اغتسلوا في العين الثانية «تصير وجوههم كالقمر ليلة البدر وتطيب نفوسهم وقلوبهم وتطيب أجسامهم كالمسك»[50]، وحوض النبي الذي ذكره السيوطي نظير لهاتين العينين فاعليةً، فما أن يشرب منه المسلمون بعد أهوال القيامة حتى يزول عنهم «التعب والشقاء والظمأ»[51]، ومن يشرب منه شربة واحدة «لا يعطش بعدها أبدا»[52].

والمسلمون الذين يخضعون للتطهر اغتسالاً بالماء صنفان، صنف **أول** يتعلق بالمسلمين الذين جازوا الصراط فيغتسلون في العينين المذكورتين ثم يدخلون الفردوس، وصنف **ثان** يتعلق بالعصاة من أمة محمد (ص) إذ يعذبون في الجحيم ثم يغفر لهم شفاعةً، فيغتسلون في نهر الحياة العجيب الذي يعيد لهم شبابهم ويمنحهم حياة جديدة.

نستنتج في هذا المستوى أن الماء ثري بأبعاده الرمزية الطقوسية، فهو مصدر حياة لأنه قوة إحيائية وإخصابية، إذ مثلما يكون الماء، منساباً أو مطراً، قادراً على إخصاب الأرض فيخضرها ويثمرها، كذلك الاغتسال في نهر الحياة أو في إحدى العينين هو فعل تطهير: تطهير المسلم رمزياً من ذنوبه وخطاياه، فيتحول الجسد المنهك أو «الجسد المتفحم»، والعبارة لإبراهيم محمود، إلى جسد شاب يستجيب لشروط الحياة الفردوسية الطاهرة، فيولد المسلم من جديد ولادة رمزية، ومن ثم يرمز الماء إلى كل خلق جديد[53].

والدور الإحيائي للماء وقدرته على إخصاب الأرض وبعثها من جديد تصور متجذر في أساطير عدة حيث كان الغيث والمني يتبادلان المواقع، إذ يمثّل الغيث بديلاً رمزياً لمني الرب عندما يخصب الأرض، وهذه الفكرة لها أثرها في كتاب **الدقائق**، يقول ابن أحمد القاضي: «ثم يأمر الله تعالى السماء بأن تمطر، فتمطر السماء ماء كمني الرجال أربعين يوماً [...] فينبت الخلق بذلك الماء»[54].

لقد احتفت أساطير الخلق بالماء ورمزيته، فكل ولادة وكل حياة مرتبطة به، فالماء هو المادة الأولى، هو السديم. وفي أسطورة التكوين البابلية كانت **تعامة** الرحم المائي الذي انبثق عنه الكون والآلهة. وفي أسطورة التكوين المصرية كانت **نون** الرحم المائي الذي جاء منه أول الآلهة **رع**[55]، وفي التوراة كانت الأرض خربة في البدء وروح الرب ترفرف فوق الماء. وطقوس التعميد المسيحية لا قيمة لها من دون ماء، وفضلاً عن ذلك يؤكد **القرآن** الدور الإحيائي للماء في آيات عديدة. ونتعقب كذلك القدرة الإحيائية للماء في التفاسير، ومن

49 المصدر نفسه، ص 43

50 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

51 **الدرر الحسان**، ص 29

52 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

53 للتوسع في رمزية الماء انظر خليل أحمد خليل، **معجم الرموز**، ط 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995، ص ص 155-154

54 **دقائق الأخبار**، ص 23. هذا الحدث يتم زمنيا عند الحشر. انظر **الدرر الحسان**، ص 21

55 انظر فراس السواح، **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، م.م، ص 78

ذلك الروايات العجيبة التي قصت أخباراً عن النبي إسماعيل وهو رضيع، وسعي **هاجر** والدته بين الصفا والمروى وتفجر العيون الكثيرة.

ولعلنا لا نخطئ لو قلنا إننا أمام متخيل نهل من مصادر مختلفة، وهذا ما سنعمل على تأكيده في الفصل الأخير من عملنا، وإن هذا الوضع على علاقة وثيقة برغبة المسلم في التطهر من الذنوب، وهو يرنو في ذلك إلى مرحلة جديدة، وعلى علاقة وثيقة أيضاً بالرغبة في توفير كل ما هو مفقود وصعب المنال في الدنيا، فكأن صورة الماء منساباً في كل أركان الفردوس تقابلها صورة عقم الصحراء وقحطها؛ يترجم هذا القحط وهذا الجفاف بالكلام عن ينابيع صافية ومتلألئة، فيخلق عالماً كائناً في اللغة، ليعبّر بذلك عما هو حيوي ومشتهى ومفقود في آنٍ. وبذلك يسقط المسلم مشاعره المعلنة والدفينة، الواعية وغير الواعية، في تصوراته الأخروية.

لا يمكن قراءة مثل هذه النصوص وفهمها إذا ما اجتثت من سياقها البيئي والديني والتاريخي، أو إذا تناسينا المصادر التي استلهمت منها مادتها، فالمتخيل الذي خلق عالماً يكتسي فيه الماء قيمة كبرى استند أساساً إلى **القرآن**، ومعلوم أن خطابه كان موجهاً إلى عرب الصحراء، وهو بذلك يعبر عن منظومة ثقافية كاملة حيث كان الناس يتقاتلون من أجله، لأن العطش سائد في البيئة الصحراوية، فوجوده مهم لتوفير الكلأ ولاستقرار القبيلة، وانعدامه يعنى حتماً الهلاك والموت. من هنا تتأكد الحاجة العملية إليه في الدنيا، ومن هنا أيضاً نفهم لماذا يعوض انعدامه أو ندرته بوفرة لا حد لها في الآخرة.

3. النبات في الفردوس[56]

تعتبر الشجرة من الرموز النباتية المهمة[57]، فإذا كانت تتميز عادة بالخضرة ثم تذبل وتتساقط أوراقها، وهي في ذلك ترمز إلى نشأة الكون وصيرورته وإلى المصير المأساوي الإنساني المقترن بالموت والعدم، فإن شجرة الفردوس لا تخضع لعامل الزمن بل هي يانعة ونابضة أبداً بالشباب والجمال والحياة، وتنسجم بذلك مع طبيعة الحياة الأخروية، لهذا «لا تيبس أغصانها ولا تتساقط أوراقها ولا يفنى رطبها»[58]، إنها تتسم بالامتداد واللاتناهي، فشجرة **طوبى** «ليس في الجنة غرفة ولا قبة ولا شجرة إلا فيها غصن منها يطل عليها»[59].

56 انظر **دقائق الأخبار**، ص 42، لم يخرج السيوطي في وصفه لأشجار الفردوس عن وصف ابن أحمد القاضي، انظر **الدرر الحسان**، ص 33، ص 41-42

57 للتوسع في رمزية الشجرة، انظر خليل أحمد خليل، **معجم الرموز**، م.م، ص ص 96-97

58 **دقائق الأخبار**، ص 42

59 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وينقلنا شجر الفردوس إلى عالم عجائبي من خلال تجليات عدة، فالشجرة عجيبة بعظمتها، وأغصان شجرة **طوبى** «متصلة بساق العرش، وأدنى أغصانها في السماء الدنيا»[60]، وبديمومة ثمارها إذ «لا يفنى رطبها»[61]، وبتنوعه «فيها من الثمار ما تشتهي الأنفس»[62]. وهي عجيبة لأنها جماع تركيبة فريدة من معادن نفيسة مختلفة، إذ قد ذكر أن «أصلها من در ووسطها من ياقوت وأغصانها من زبرجد وأوراقها من سندس»[63]، وذكر أيضاً أن على كل باب من أبواب الجنان «شجرة ساقها من المرجان، لكل شجرة سبعون ألف غصن وفي كل غصن سبعون ألف لؤلؤة»[64].

وهي أيضاً عجيبة بشكلها «أصلها في الهواء وأغصانها في الأرض»[65]، فتمثل هذه الشجرة يتطلب منا أن نقلب الصورة التي نحملها للشجرة التي في مخيلتنا. وهي كذلك لأنها شجرة رغبات، تثمر حللاً وخيلاً إذ «يخرج من أعلاها الحلل ومن أسفلها خيل ذات أجنحة مسرجة بالدر والياقوت»[66]، يمتطيها صفوة المؤمنين فتطير بهم[67]، وتثمر أحجاراً كريمة، فالشجر يمنح اللؤلؤ، كلما قطعت لؤلؤة «ينبت مكانها اثنان»[68]، وتثمر أيضاً حوراً وغلماناً إذ وجدت شجرة من جوهر فيها ثمر، كلما أكلت ثمرة خرج من الحب جارية وغلام[69].

وهي عجيبة لأن حفيف الأوراق يصدر صوتاً موسيقياً جميلاً: «وإذا هبت الريح يضرب الورق بعضه بعضا فيخرج منه صوت ما سمع أحسن منه»[70]، وتتميز أيضاً بامتداد الظل، فالراكب يسير في ظل الشجرة مئة عام ولا يقطعها[71].

يبدو هنا أثر المرجعية القرآنية في صوغ مثل هذه التصورات التي لا تنفصل عن بيئة القوم الذين خصّهم **القرآن** بالخطاب، فهي تتميز بشدة الحر لأن مناخها صحراوي، ومن ثم يصبح الحديث عن الظل ذا قيمة كبرى، وهذا ما عبّر عنه **القرآن** في آيات مختلفة[72]. إن **القرآن**، وإن كانت رسالته روحية بالأساس، إلا أنه تبنى الموضوعات التي لها صلة مباشرة وعلاقة وثيقة بذهنية من خاطبهم وبطبيعة معاشهم وحياتهم، لهذا

60 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
61 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
62 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
63 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
64 **الدرر الحسان**، ص 41
65 **دقائق الأخبار**، ص 42
66 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
67 انظر **الدرر الحسان**، ص 42
68 المصدر نفسه، ص 41
69 انظر المصدر نفسه، ص 42
70 **دقائق الأخبار**، ص 42
71 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
72 انظر مثلاً سورة الواقعة 30/56

أولى الظل قيمة كبرى، فلا نستغرب مثلاً ألا يذكر الورود والأزهار، ومن ثم لا غرابة ألا يذكرها المتخيل الإسلامي في وصفه الفردوس.

وما نستنتجه أن المتخيل الإسلامي حافظ على صورة الشجرة المألوفة حيث هناك جذع وأغصان وأوراق، لكنه أضفى عليها عناصر أهلتها كي تكون شجرة عجيبة عجب كل مكونات الفردوس. ولئن اتسم شجر الفردوس بضخامة حجمه، فإن تلك الضخامة تمثل امتدادا لتصورات عريقة تضرب بجذورها في عمق التاريخ الإنساني، فشجرة الحياة في الميثولوجيا اليونانية الرومانية ضخمة ضخامة شجرة الحياة التي غرسها **يهوه** وسط الجنة التوراتية[73].

والشجرة غنية بأبعادها الرمزية، كما رأينا ذلك مع الماء، فهي ترمز في بعض معانيها إلى أصل الحياة وإلى البدايات الأولى وانبثاق عناصر الوجود، وهذا المعنى حاصل منذ فاتحة المصدرين حيث خلق الله شجرة اليقين ثم خلق نور محمد في حجاب من درة بيضاء ووضعه على تلك الشجرة[74]. وترمز الشجرة أيضاً إلى التفاؤل وإلى الولادة الجديدة وإلى الشباب والصحة والنضارة وديمومة الحياة. وإن كانت الحياة الدنيوية تتسم بالفناء والمحدودية والعدم فإن الحياة الأخروية تتميز بالخلود.

إن في التحرر من الصورة المألوفة للشجرة تبرز القدرة على الخروج بالإنسان من عالمه المتناهي الذي يشعر فيه بوطأة الزمن بجعله لا متناهياً. وليس هناك أعمق من صورة هذه الشجرة العظيمة، فامتدادها يقوي تصور البعث والخلود. فضلا عن ذلك ترمز الشجرة إلى العطاء والخصوبة، فنحن أمام شجرة تثمر رغبات وتحقق أمنيات، غير أن تحققها مشروط بالالتزامات التعبدية[75]، فالأولى رهينة الثانية، وهذا ما يحقق الوظيفة الترغيبية.

ويستوقفنا في وصف تلك الشجرة المقلوبة ذات الأصل السماوي والفرع الأرضي، هذه الشجرة متعددة الرموز، أن لها صدى في ثقافات مختلفة مثل شجرة «الأوبانيشاد» الكونية حيث جذورها في السماء وأغصانها مفروشة على الأرض، «وقد تمثل هذه الشجرة ظهور **براهما** في الكون أي عملية الخلق المتخيلة كمسيرة هبوطية. وصورة الشجرة المقلوبة هذه موجودة في تراث الصابئة، وفي بعض المذاهب الباطنية والإسلامية وعند دانتي وفي بعض الشعائر السكندينافية والأسترالية والايسلندية»[76].

---

73 انظر فراس السواح، م.م، ص ص 114-115

74 انظر **دقائق الأخبار**، ص 2، **الدرر الحسان**، ص 2

75 انظر **دقائق الأخبار**، ص 42

76 جلبير ديران، **الأنتروبولوجيا رموزها وأساطيرها وأنساقها**، تعريب مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، د.ت، ص 324

أفلا يسمح لنا هذا بالقول إن التصورات الإسلامية من خلال أنموذجي الماء والشجرة تحتفظ لنا على صعيد الرمز ببعض مظاهر طقوس الولادة والخصب لآلهة الشرق القديم؟

4. سكان الفردوس

من هم سكان الفردوس؟ وهل يمكن القول بداهةً إن الفردوس المتحدث عنه يضم كل مؤمن آمن بوحدانية الله وبوجود عالم أخروي؟

لا يمكن التسليم بذلك، لأن الفردوس الموصوف أوصد أبوابه أمام غير المسلم، فكل ما هو موصوف يدل أن هذا الفضاء يضم فقط النبي محمد (ص) وأمته، وآية ذلك أمثلة عديدة، أبرزها الآتي:

4. 1. صورة النبي (ص)

تحتفي كل أمة بأبطالها ورموزها، ولم تشذ الأمة الإسلامية عن ذلك. ولأنه لا معنى لتاريخ مجموعة من دون رموز قد تتجاوز أحيانا بشريتها، يظل النبي محمد (ص) أهم رمزٍ في متخيل المسلمين، ليس في دنياهم فحسب، بل في آخرتهم أيضاً. وتتأكد مركزيته من خلال صور عديدة حيث كان النبي (ص) محدِّثاً أو محدَّثاً عنه. ولقد رمنا الوقوف على ذلك كي نفهم كيف تمثل المسلمون نبيهم، وكيف تمثلوا آخرتهم، إلى جانب ذلك نريد معرفة على من قيس محمد المتحدث عنه، هل قيس على المسلم العادي أم على بقية الأنبياء والرسل؟

فكيف قدمت صورة النبي في العالم الأخروي؟

- يؤمر رضوان خازن الجنان يوم القيامة بتهيئة الجنان لمحمد وأمته[77].

- هو، أي النبي، «أول من تنشق عنه الأرض»[78]، وأول ما يسأل عنه بعد بعثه حال أمته وتحديدا المذنبين منها[79].

- بدا النبي في صورة ملكٍ بحلة وتاج ولواء.

- يبعث الرسول راكبا إلى المحشر ومطيته البراق. يقول (البراق): «وعزة ربي، لا يركبني إلا النبي الهاشمي الأبطحي محمد بن عبد الله صاحب القرآن»[80].

77 انظر **دقائق الأخبار**، ص 22-23، **الدرر الحسان**، ص 21

78 **دقائق الأخبار**، ص 23، **الدرر الحسان**، ص ص 21-22

79 انظر **دقائق الأخبار**، ص 23

80 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

▪ يستشفع للخلق عند فصل القضاء ويستشفع لأمته إذ يذهب قبل الحساب إلى الجنة ويخر ساجدا طالبا من ربه ما وعده في أمته[81] ثم يستشفع للعصاة منها لاحقا.

▪ عند محاسبة الخلائق يصل النبي نداءٌ من الله: "أين النبي الهاشمي؟ فيأتي رسول الله عليه الصلاة والسلام ربه، فيحمده ويثني عليه، فتتعجب الخلائق منه، ويسأل ربه أن لا يفضح أمته"[82]، ويتضح من هذا القول أن الله هو المناجي وفي ذلك اعلاء لشأن النبي.

▪ لمحمد "خيمة من درة بيضاء ولها أربعة آلاف بابٍ، لكل باب مصراعان، مصراع من ذهب ومصراع من فضة بيضاء"[83].

▪ له حوض اختص به دون سواه من الأنبياء[84] ووجدت رواية ثانية تذكر أن لكل نبي حوضا ومع ذلك ليس في الموقف أكثر واردا من حوض محمد[85].

فهل إن النبي (ص) الشفيع الوحيد من الأنبياء، أم إن الله هو الذي سيشفع لخلقه طالما أن رحمته واسعة لم ينزل منها على الإنس والجن والبهائم والهوام إلا رحمة واحدة "وادخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"[86]؟ وكيف تفهم مركزية النبي (ص) في الآخرة؟ وما الذي يجعل المسلمين يعتقدون أن الشفاعة حكر على النبي (ص)؟

4. 2. صورة أمة محمد (ص)

توجد شواهد نصية عديدة تعلي من مكانة أمة محمد (ص) في الآخرة، فهي تشكل أغلبية المؤمنين: "قال عليه السلام إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثم قال عليه السلام، إني أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ففرحوا، فقال النبي عليه السلام: إني أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة، وقال عليه السلام: أبشروا إنما أنتم

81 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

82 المصدر نفسه، ص 31

83 المصدر نفسه، ص 39

84 انظر **الدرر الحسان**، ص 29

85 "وقيل إن لكل نبي حوضا"، المصدر نفسه، الصفحة نفسها. وللتوسع انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 5، ص 2117

86 **دقائق الأخبار**، ص 21

في الأمم كالشعرة في جنب البعير، إنما أنتم جزء واحد من ألف جزء"[87]. وذكر أيضاً: "روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمتي مائة وعشرون صفا، وهذا أصح"[88].

ولأمة محمد علامات مميزة يوم القيامة: "قيل يا رسول الله بم يعرف المؤمنين[89] يوم القيامة؟ قال عليه السلام: إن أمتي غرّ محجلون من آثار الوضوء"[90]، وحتى مذنبوها مميزون: "قالت فاطمة: يا رسول الله أو لم تسأل عن أمتك كيف يدخلونها (أي الجحيم)؟ قال عليه السلام: تسوقهم الملائكة إلى النار فلا تسودّ وجوههم، ولا تزرق أعينهم، ولا تختم أفواههم، ولا يقرنون مع الشيطان، ولا توضع عليهم السلاسل والأغلال [...] فإذا نظر إليهم مالك، تقول الملائكة: من هؤلاء فما ورد علينا من الأشقياء أعجب من هؤلاء؟ لم تسودّ وجوهم، ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم، فتقول الملائكة: هكذا أمرنا أن نأتي بهم على هذه الحالة"[91].

وهي أول من تجوز على الصراط[92]. ويخرج عصاة تلك الأمة من الجحيم بفضل شفاعته حتى أننا نعلم آخر من يخرج منها، وهو رجل يدعى جهينة وقيل هناد[93]، ويخرج "كل من كان يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله"[94] بعد أن قدّم لهم النبي (ص) كل اعتذاراته وسمي هؤلاء بالعتقاء فقد كتب "على جباههم هؤلاء عتقاء الرحمان من النار"[95]، لكن عندما يدخلون الجنة "يعيرون" فيدعون الله كي يمحو عنهم ذلك!

4. 3. صورة الآخر

كيف تتجلى صورة الآخر؟ (أمم أخرى: يهود ومسيحيون مثلاً) فالذات عندما تموضعه وعندما تقصيه إنما تموضع أولاً ذاتها وتسمو بها، وبين الذات والآخر يكون الحديث عن التفاضل وهو أمر يخلق عالماً تراتبياً، في هذا الإطار يمكن الحديث عن التفاضل بين الأنبياء وبين الأمم وبين الكتب المقدسة وحتى داخل الأمة الواحدة من قبيل الحديث عن تفاضل السور وتفاضل الخلفاء الراشدين وتفاضل الصحابة وتفاضل نساء العالمين وغير ذلك. ويبقى هذا المبحث ذا منزع معياري وأخلاقي بالأساس إضافة إلى أن مقاييسه نسبية.

87 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. مثل هذا الخبر موجود في العديد من التفاسير على غرار ما ذكره ابن كثير: قال الرسول: "أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ فكبّرْنا. ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فكبّرْنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة" **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 2، ص 755

88 **دقائق الأخبار**، ص 27، "ورد أن أهل الجنة مائة وعشرون صفا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم ثمانون صفا، ثلثا أهل الجنة" **الدرر الحسان**، ص ص 33-34

89 كذا في الأصل، والصواب المؤمنون.

90 **دقائق الأخبار**، ص 26

91 المصدر نفسه، ص ص 35-36

92 انظر **الدرر الحسان**، ص 28

93 انظر المصدر نفسه، ص 25

94 **دقائق الأخبار**، ص 40

95 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4. 3. 1. صورة الأنبياء

بما أن التقديم يدل على الاعتناء والإبراز، لا حديث في مدونتنا عن الأنبياء في ذواتهم بل يتنزل الحديث عنهم دائماً في الهامش، وفي إطار مقارنتهم بالنبي محمد (ص) بقطع النظر إن كانت تلك المقارنة صريحةً أو متضمنةً ومن مظاهر ذلك:

▪ "أول ما كتب القلم في اللوح المحفوظ بأمر الله تعالى: إني أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد عبدي ورسولي وخيرتي من خلقي"[96]، وقد خلق الله "نور الأنبياء من نور محمد عليه السلام"[97]، وأن أرواحهم طافت حول نوره[98].

▪ يعود فضل فصل القضاء بين الناس يوم القيامة إلى أمة محمد التي نادت الله بعبارة "بسم الله الرحمان الرحيم"، ونثمن هنا ما قاله ابن أحمد القاضي: "ثم يقول الله تعالى لسائر الأمم لو لم يذكروني (أي أمة محمد) بهذا الاسم لأطلت عليكم القضاء ألف عام"[99].

▪ من المقارنة تتضح مراتبية المقام، إذ يقول كل واحد يوم القيامة "نفسي نفسي حتى الخليل والكليم إلا الحبيب فيقول أمتي أمتي"[100]. وأورد السيوطي خبراً يظهر فيه كل من آدم ونوح وإبراهيم وموسى أصحاب ذنوب[101]، وبدا عيسى في منتهى الأنانية: "يا إلهي لا أسالك مريم أمي وإنما أسألك نفسي"[102] ولم يشفع في الخلق إلا محمد (ص)[103].

▪ يستزير الله محمداً وأمته، ولأهمية الخبر يكفي أن نذكر أن خبر الزيارة يمتد على صفحات طويلة[104] ولا حديث في تلك الصفحات إلا على أمة محمد (ص) وهي في نعم كثيرة بينما جاء الحديث عن بقية الأنبياء عرضاً[105]، ويصف السيوطي موكب الرسول المتوجه إلى "حظيرة القدس"[106]، فإذا نحن أمام موكب ملكي

96 **الدرر الحسان**، ص 18

97 **دقائق الأخبار**، ص 2، **الدرر الحسان**، ص 2

98 انظر **دقائق الأخبار**، ص 3

99 المصدر نفسه، ص 29

100 المصدر نفسه، ص 40

101 انظر **الدرر الحسان**، ص 23

102 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

103 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

104 انظر **الدرر الحسان** من ص 30 إلى آخر صفحة في المصدر، وهو عدد مهم مقارنة بحجم الكتاب ومقارنة ببقية الموضوعات التي ذكرها.

105 "انطلق يا جبريل إلى الجنان واتني بحظيرة القدس لأضيّف فيها **محمدا** صلى الله عليه وسلم **وأمته" الدرر الحسان**، ص 30. ثم يذكر لاحقا "واتني **بمحمد وأمته وجميع الأنبياء والرسل**" المصدر نفسه، ص 31، ويتكرر القول مرة أخرى في الصفحة نفسها: "يا محمد الله يقرئك السلام **ويخصك** بالتحية والإكرام، ويدعوك **أنت وأمتك وسائر الأنبياء والرسل**". يسبق في الخطاب الكلام عن أمة النبي بقية الأنبياء وهو قول له دلالة.

106 **الحظيرة**: ما أحاط بالشيء، كل ما حال بينك وبين شيء فهو حِظار وحَضار، وتُعمل الحظيرة من شجر للإبل لتقيها البرد والريح. والمُحْتَظِر: الذي يعمل الحظيرة، والاحتضار: فعل الحِظار. وحظيرة القدس هي الجنة. انظر **اللسان**، مادة (ح ظ ر)، ج 2، ص ص 9018-9019

في مستوى الوصف المطول والدقيق في تفاصيله وفي مستوى المعجم المستعمل (موكب، وفد، قبة، لواء، صفوف[107])، وتكون تلك الضيافة في مكان مميز هو "حظيرة القدس"، وهي ركن من أركان جنة عدن بل هي أفضل الجنان نزلا[108]، ورغم أنه من المفترض أن تكون مقتصرة على صفوة القوم من أنبياء ورسل وشهداء وصالحين كما دأبت الأدبيات الإسلامية على تصوير ذلك نظراً لوجود مراتبية بين العباد، فإن السيوطي لم يذكر أي تفاضل بينهم، إذ ضمّ هذا الفضاء الله والأنبياء والرسل وكل المؤمنين معاً. فكأن همّ الرجل هو وجود فردوس وملذات فحسب، وكان بإمكانه أن يكتفي بجنة عدن، إلا أنه تخيل مكاناً آخر، بدا أكثر قرباً من عرش الرحمان، وأكثر نعماً من جنة عدن نفسها. وتعدد الفضاءات في الفردوس يعني وجود نعم لا حد لها فيه ويسمح بدخول أكبر عدد ممكن من مؤمني أمة محمد (ص) حتى وإن كانت الحسنات قليلة جداً، إذ يكفي أن تبكي عين من خشية الله فتطلب شعرة من شعرات تلك العين المغفرة لصاحبها[109] أو يشفع لرجل أحب رجلاً كان محباً للعلماء[110].

- إبان ضيافته يأكل النبي (ص) من جهة تكريماً وتشريفاً، ويأكل الأنبياء من جهة أخرى[111].

- في حظيرة القدس هناك منبر عظيم، وما يهمنا في الخبر أن النبي (ص) على درجة الوسيلة[112] الموعود بها بعد أن اعتلى كل نبي درجته[113].

- ذكر خبر إبراهيم وموسى وعيسى فداود ثم محمد ويمكن تثمينه من جهتين: من جهة **أولى** يرد المنادى في أربع حالات من دون ذكر لصفته، وفي الحالة **الخامسة** مع محمد تضاف عبارة **حبيب**: "يا **حبيبي** يا محمد"[114]، ومن جهة **ثانية** هناك مقابلة بين صوت داود وصوت محمد، ورغم حسن صوت داود، كما عبّر عن ذلك النص: "هل سمعتم صوتا أحسن من هذا؟ فيقولون: لا يا ربنا ما طرق أسماعنا صوت أطيب من هذا"[115] فإن صوت محمد يزيد "في الحسن على صوت داود عليه السلام سبعين ضعفا"[116].

---

107 انظر **الدرر الحسان**، ص ص 31-32

108 انظر المصدر نفسه، ص 30

109 انظر **دقائق الأخبار**، ص 40

110 انظر المصدر نفسه، ص 33

111 انظر **الدرر الحسان**، ص 33

112 «عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا صليتم علي فسلوا الله لي **الوسيلة**. قيل يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو» **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 4، ص 1678

113 انظر **الدرر الحسان**، ص 36

114 المصدر نفسه، ص 37

115 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

116 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4. 3. 2. صورة الأمم الأخرى

ليس ثمة حضور إيجابي لأمم غير إسلامية في الفردوس. ويبرز ذلك من خلال أمثلة عديدة موزعة على صفحات مختلفة من المصدرين، وبذلك نفهم سبب إقصائهم من الفردوس المؤسلم، وإن لم يصرح المؤلفان بذلك:

أولا، "من عرق أذنيه (أي النبي) خلق أرواح اليهود والنصارى والمجوس وما أشبه ذلك من الملحدين والجاحدين والمنافقين"[117]، "ومنهم من لم يرَ شيئاً (من نور محمد) فصار يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو كافراً"[118]، ونلاحظ هنا أنه يجمع بين اليهودي والنصراني والملحد والجاحد في خانة واحدة.

ثانياً، بعد نزول عيسى من السماء[119] يكسر الصليب وتهلك في زمانه سائر الملل سوى الإسلام، ويسكن عيسى مدينة المصطفى ويتزوج ويكون له ولد، وعندما يموت يصلي عليه المسلمون ويدفنونه بجانب قبر النبي[120]. ونستنتج من هذا القول أن الصليب يحطم رغم قيمته الرمزية في المسيحية، وتقصى جميع الديانات إلا الإسلام، مع الحرص على إبراز بشرية عيسى بتزويجه وإنجابه الذرية مقارنة بصفة الألوهية التي أضيفت إليه.

ثالثا، يوجد موقف سلبي من اليهود[121] وهو موقف مهمتٌ، فقد جاء على لسان الله وهو يخاطب موسى أن على قومه "أن يرضوا خصماءهم، قال موسى: إلهي فإن كانوا قد ماتوا، قال تعالى: يا موسى فإني حي لا أموت أبدا، قل لهم يرضوني. قال: كيف يرضونك؟ قال تعالى: بأربعة أشياء بندامة القلب والاستغفار باللسان ودمع العين وخدمة الجوارح"[122]. و"قال الله تعالى: يا موسى لو رأيت ناقضي العهد والأمانة يسحبون على وجوههم إلى النار، فإذا طرحوا في جهنم صار كل عضو منهم في مكان وكل عرق في مكان [...] ويل لناقض العهد والأمانة"[123]. ويجدر بنا إعطاء أهمية لهذا القول، وبخاصة إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن موسى أكثر الأنبياء الذين يذكرهم **القرآن** وقومه وكيف نقضوا العهد أكثر من مرة، وقد تجلى ذلك بخاصة في السور التي نزلت في يثرب، وأبرزها مثالاً سورة البقرة ولا يبدو قوم موسى في كل ما تقدم من أخبار في صورة إيجابية.

---

117 **دقائق الأخبار**، ص 2

118 **الدرر الحسان**، ص 4

119 وهذا قبل القيامة.

120 انظر المصدر نفسه، ص 19

121 انظر الخبر المتعلق بعزيْر وعيسى في المصدر نفسه، ص ص 27-28

122 **دقائق الأخبار**، ص ص 29-30

123 المصدر نفسه، ص 38

في ضوء ذلك نقف على بعض الملاحظات:

لا تفاصيل تتعلق بأمم غير إسلامية في الفردوس، رغم أن الحديث النبوي يقر ضمنياً بوجود أمم أخرى فيه: "قال عليه السلام: إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، [...] شطر أهل الجنة [...] ثلثي أهل الجنة ..."[124]. وبقطع النظر عن مقدار هذه الأمة، فإن ما تبقى من المؤمنين يفترض أنهم من أمم أخرى، إذ يقرّ نص السيوطي بوجودها عندما يذكر "سائر الأنبياء والأمم"[125] في الفردوس، أو عندما يقول: "وجميع الأمم من أهل الجنان"[126]، ويذكر أيضاً أمة إبراهيم التي خطب فيها، وكذلك أمة موسى وأمة عيسى[127].

إضافة إلى ذلك نجد عدد الداخلين من أمة محمد(ص) إلى الفردوس محدوداً جداً، وهذا ما كان قد أشار إليه ابن أحمد القاضي حينما وصف النبي (ص) يبكي حرقة على أمته لمّا علم أنها ستحشر على اثني عشر صنفاً، وجميعهم بصفات سيئة كالقردة والخنازير، كما ورد ذلك في الباب الخامس والعشرين من المصدر[128]، وإن كانت الرواية الثانية من الباب نفسه التي وردت على لسان معاذ بن جبل تنقذ الموقف وتستثني الفوج الثاني عشر. وفي موضع آخر نجد النبي **(ص)** قد استغرب واستنكر كيف لأحد من أمته أن يدخل الجحيم: "يا جبرائيل عظمت مصيبتي واشتد خوفي أيدخل أحد من أمتي النار؟ قال جبرائيل: نعم، يدخل أهل الكبائر من أمتك، ثم بكى رسول الله عليه الصلاة والسلام"[129]، ورغم هذا التضارب في الأخبار فإن المتخيل الإسلامي لم يستنكف من ذلك ووصف فردوساً إسلامياً. إذاً، إذا كان حضور الأمم غير الإسلامية محتشماً في الفردوس، فلماذا لا نجد أخباراً عنهم مثل أمة محمد؟ لم الصمت من قبل المؤلفين؟ وكيف يفهم هذا التناقض في الأخبار المرتبطة بمصير أمة محمد (ص)؟

تعد هذه التصورات صدى لما وقع في التاريخ، وإن كان الواقع معقداً ويصعب تصوره تاريخاً وإن دوّن، والأسباب كثيرة كي يوجد منزع دفاعي استعلائي تمجيدي للرسول واعتباره أفضل الأنبياء أو هو

124 المصدر نفسه، ص 21
125 المصدر نفسه، ص 31
126 المصدر نفسه، ص 36
127 انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
128 انظر المصدر نفسه، ص ص 24-26
129 المصدر نفسه، ص 35

أشرف المرسلين أو هو الشفيع الوحيد[130]. لقد كانت السجالات المذهبية كثيرة والصراع الشعوبي على أشده، وبخاصة بوجود ملل مختلفة، مثل الفرس والترك والروم والزنج والديلم، إذاً هذه "العناصر الجنسية [...] وما تستلزم من عصبيات، وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع، ومن حنابلة وشافعية وحنفية، ومن مسلمين ويهود ونصارى، وغير ذلك كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية"[131] أثرت حتماً في المجتمع والسياسة والدين والآداب. ومع دخول الشعوب الإسلامية لاحقاً مرحلة الجمود والانحطاط، واندلاع الحروب الصليبية، والزحف المغولي، وكثرة الصراعات على السلطة، وانقسام الخلافة إلى دويلات عدة، في كل هذا كانت صورة الأنا تتضخم بينما تتهاوى صورة الآخر، وعند الشدائد والمصائب يتعاظم الحديث عن الرموز.

لا شك في أن الحديث عن النبوة وكل ما يتعلق بالدين عموماً مرتبط دائماً بتوافر عنصر الخارق، فمن خلاله يتأكد صدق نبي ما أو كذبه، وإذا كان **القرآن** قد أخبرنا عن معجزات الأنبياء، وهي كثيرة والتي تهمنا أكثر من غيرها معجزات موسى وعيسى لأنها مرتبطة بالديانتين التوحيديتين المنافستين للإسلام، فإنه لم يذكر معجزةً واحدةً تنسب إلى النبي **(ص)** وكثيرا ما كان يتردد سؤال: أين معجزة محمد[132]؟ كان هذا هاجس أمة تتخطفها أمم أخرى وتسائلها الدليل والبرهان، ولم تكن معجزة البلاغة القرآنية كافية بالنسبة إليها لهذا خاض الضمير الجمعي في براهين تلك النبوة، فظلت الخوارق التي تنسب إلى أنبياء آخرين تسحب من تحت بساطهم وتنسب إلى محمد في كتابات السيرة التي ظلت أحداثها تخرج من التاريخ وتلتحق بالأسطورة.

وفي ظل غياب نص قرآني صريح أحياناً، وانفتاح بعض الآيات على أكثر من تأويل أحيانا أخرى، وهو المجال الذي ينشط فيه المتخيل كي يسد الفراغ، قام المفسرون والمحدثون والقصاص[133] بدور مهم في توفير مجموعة من الأخبار، وهي مادة غنية وخطيرة لما تضمنته من روايات متضاربة. ورغم ذلك بدا واضحاً

---

130 رغم أنّ الشفاعة ذُكرت في القرآن في مناسبات كثيرة، لكنّ عدم وجود نصّ صريح يكون فيْصلا جعل المفسّرين يراهنون على آية: (عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ **مَقَامًا مَحْمُودًا**)، **الإسراء** 79/17. وكان «أكثر أهل التأويل»، والعبارة لابن جرير، قد أجمعوا أنّه «المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس» (انظر **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 5، ص 2116). فمن المقصود بعبارة **الناس**؟ هل تُحمل على معنى كلّ الخلق أم على أهل التوحيد عامة أم يتعلّق الأمر بأمّة محمّد فقط؟ (انظر ما ذكره ابن أحمد القاضي فيما يتعلق بأهل التوحيد، **دقائق الأخبار**، ص ص 36-37) وبخاصة أنّ الأحاديث المذكورة تتضارب (انظر الأحاديث في **تفسير ابن كثير**، م.م، ج 3، ص ص 1320-1323، ج 5، ص ص 2116-2122)، فمرّة يشفع محمّد في جميع الخلق، وتبرزه أحاديث أخرى حريصاً على أمته فقط، فهذا عيسى يستشفعه في جميع الخلق فإذا به يشفع لأمته، (م.ن، ج 5، ص 2119)، وكيف يستقيم هذا القول وهو القائل: «إنّي لأرجو أنْ أشفع يوم القيامة عَدَد ما على الأرض من شجرة ومَدَرة»، (م.ن، ج 5، ص 2119)؟ كيف للنبي أن يشفع في الناس وهو لا يعلم نوايا البشر وخفاياهم والحال أنّ الله علاّم الغيوب؟ أفمن لا يعلم يستوي مع من يعلم ويُسمح له بالشفاعة؟ وهل يتوقف فصل القضاء بين الخلائق يوم القيامة وهو حدث عظيم على وساطة بشريّة؟ أفلا يكون مفهوم الشفاعة هذا هو استمرار لتصوّرات معيّنة وطقوس وشعائر كانت سائدة قبل الإسلام وهو مرتبط بمفهوم الدين السائد آنذاك، وما الأصنام مثلاً إلا رمز يجسّد حضور الإله في الأرض، لا سيما أنّ مفهوم الإله تطوّر تاريخياً، إذ حُجب وصار بعيداً في السموات العلى، فصار فكرة مجرّدة واحتاج الإنسان إلى واسطة تقرب بين السماء والأرض وتشفع له عند الإله السماوي. ومفهوم الواسطة هذا نجد له صدى في التصوّرات الشعبيّة الإسلاميّة الراهنة، وما الاعتقاد في بركة الولي وقدراته الخارقة وذبح «القربان الحيواني» المنذور له إلا أبرز مثالين على ذلك، وما تزال هذه الممارسات موجودة في العديد من المناطق التونسيّة إلى يوم الناس هذا.

131 أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، ط 3، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج 1، ص 87

132 (ويقول الذين كفروا لوْلا أنْزل عليه آيةٌ منْ ربه) الرعد 13/7

133 كان ابن الجوزي (تـ 597هـ/1200م) قد أشار إلى سلطة القاص وخطورته المعرفية في كتابه **القصاص والمذكرين**، وكذا فعل السيوطي من بعده في كتابه **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**.

أن المسلمين كانوا متقبلين للخبر، بكل تلك التناقضات، ومتفاعلين مع القصص أكثر من تفاعلهم مع أشكال التعبير المؤسساتي.

كان الضمير الجمعي الإسلامي بحاجة أكيدة لمثل هذه الأخبار، لأنه يبحث عن موقع لذاته، من أجل إثباتها أمام الآخر. وعلى هذا الأساس، فإن ما يقدمه لنا المتخيل من خلال تلك الأخبار لا نتعامل معها من منطلق أنها أخبار موضوعية أو صحيحة بل من حيث هي أخبار نستنطقها طالما أن المتخيل "ليس مادة أكاذيب خارجة عن الواقع بل استجابة لطموحات الذات في ظل إكراهات الواقع بل يمكن دون مبالغة استنطاق الواقع عبر منجزات التخيل"[134].

ونلاحظ أن موقع الآخر المخالف بالدين في الفردوس تحدد بإسقاط الصورة الدنيوية التي رسمها المسلم للآخر في متخيله، فانعكس ذلك في تصوراته الأخروية، وهي تستوي مكانة أمام نظيرتها المتكونة عنه. ألم يسخر المسيحيون من فردوس المسلمين لأنه موغل في الرغبات الجسدية، والأولى في نظرهم أن يكون فردوساً روحياً يعبر عن السعادة الأزلية وعن الحياة السرمدية؟ إذن نحن في النهاية أمام صراعات دينية وتاريخية وأيديولوجية وفكرية.

أما بخصوص تناقض الأخبار، كما بدا ذلك في مصدرينا وفي مصادر أخرى، فيعود ذلك إلى أسباب مختلفة، من ذلك تعدد رواة الأخبار مع ما يطرأ على الخبر من تغيرات في بنيته السردية من راوٍ إلى آخر، وكذلك السياق الذي يروى فيه وسياق التلقي والمستوى المعرفي لكل من الراوي والمتلقي وغير ذلك. ومن ثم فإن الخبر معرض دائماً إلى التحوير إن بالزيادة أو النقصان، إن كثيراً أو قليلاً.

والمتخيل الذي نهل أخباره من مصادر مختلفة، يعمد إلى تركيبها والتوليف بينها، ولا يهم التناقض. المهم أن الأخبار تشكل قصة، وقصة عجيبة تحديداً، وبخاصة إذا ارتبط الأمر بالعالم الأخروي الذي يصبح فيه أي تناقض مقبولاً طالما أن الناس بطبيعتهم موكولون كما يقول الجاحظ بحكاية كل عجيب.

لقد رمنا بهذا التمشي إبراز أهم الصور التي تمثَّلها المتخيل الإسلامي، وخصوصاً ما ارتبط منها بالحياة الجنسية في الفردوس ومائه ونباته، وبرمز الأمة الإسلامية، وبالأمة نفسها وموقفها من أمم أخرى، وانعكس ذلك جلياً في التصورات الأخروية. لكن إذا كان المسلم بالعمل الصالح يشمّر للفردوس، فلِمَ يشمر؟ هل حباً بالله وتوقاً لملاقاته، أم حباً بالمتع الأخروية الحسية؟ تبدو الإجابة الثانية أقرب إلى لاوعي المسلم، وحسبنا ما ورد في الحديث الذي صدّرنا به هذا الفصل، فالحديث عن رؤية الله التي يفترض أنها نعمة النعم تغيب في هذا الحديث النبوي وتغيب تماماً في نص ابن أحمد القاضي، أما السيوطي ولئن عرج عليها، فإن ذلك تمّ بعد أن ارتوى المسلم من كل الملذات الحسية، ولنا إلى هذه المسألة عودة في فصل لاحق.

134 حافظ قويعة، **المتخيل في كتب السيرة، طبقات ابن سعد نموذجا**، م.م، ص 89

وصفوة القول إن الفردوس حلم كل مجموعة بشرية تعتقد باليوم الآخر، رغم أنه يختلف من أمة إلى أخرى في جغرافيته، وفضائه ومكوناته وهندسته وسكانه، بين الداخلين إليه والمقصيين منه، ويختلف بين أولئك الذين يوجدون في درجاته العلى وأولئك الأقل منهم منزلة، وبين السابقين الأولين والآخرين. تسعى كل ديانة إلى تقديم فردوسها باعتباره الأفضل، وهي في ذلك تحتكره حتى أنه صار فضاء رهانات ومساومات إلى حد لم يعد التمييز ممكناً بين أصحاب الفردوس وأصحاب الجحيم.

لائحة المصادر والمراجع

(رتبنا هذه القائمة ترتيباً ألفبائياً دون اعتبار "ابن" و"أبو")

المصادر:

1. الأساسية

- السيوطي (جلال الدين، تـ 911هـ/1505م)، **الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان**، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- القاضي (عبد الرحيم ابن أحمد، تـ 596هـ/1200م)، **دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار**، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- **القرآن** الكريم (رواية حفص عن عاصم).
- مخطوط **الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان**، بالمكتبة الوطنية تونس، ورقمه Mss 413.
- مخطوط **دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار**، بالمكتبة الوطنية تونس، ورقمه Mss 1117.

2. التكميلية

- البيضاوي (أبو الخير ناصر الدين، تـ 791هـ/1388م)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق عبد القادر عرفان، دار الفكر، بيروت، 1416هـ/1996م.
- الرازي، (فخر الدين، تـ 606هـ/1209م)، **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، تـ 1410هـ/1990م.
- السيوطي: **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص**، طبعة 1، دار ابن زيدون، بيروت، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.
- الطبرسي، (الفضل بن حسن، تـ 548هـ/1153م)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير، تـ 310هـ/922م، وتاريخ الوفاة مختلف فيه)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، طبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ/1992م.
- ابن كثير، (أبو الفداء إسماعيل، تـ 774هـ/1372م): **تفسير القرآن**، تحقيق محمد إبراهيم البنا، طبعة 1، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علوم القرآن، دار ابن حزم، السعودية، دمشق، بيروت، 1419هـ/1998م.
- المحاسبي، (الحارث ابن أسد، تـ 243هـ/857م)، **التوهم؛ رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة**، طبعة 1، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ/2003م.

المراجع:

1. الكتب العربية والمترجمة

- أركون (محمد)، **الفكر الإسلامي قراءة علمية**، تعريب هاشم صالح، طبعة 2، مركز الإنماء القومي، بيروت، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، 1996.
- أمين (أحمد): **ظهر الإسلام**، طبعة 3، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- بوحديبة (عبد الوهاب)، **الجنسانية في الإسلام**، تعريب محمد علي مقلد، دار سيراس للنشر، تونس، 2000.
- خليل (أحمد خليل)، **معجم الرموز**، طبعة 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995.

▪ ديرون (جيلبير)، **الأنتروبولوجيا رموزها وأساطيرها وأنساقها**، تعريب مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، د.ت.

▪ السواح (فراس)، **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، طبعة 5، دار علاء الدين للطباعة والنشر، دمشق، 1993.

▪ عجينة (محمد)، **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها**، طبعة 1، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس، دار الفرابي، بيروت، 1994، وطبعة 2، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس، دار الفرابي، بيروت، 2005.

▪ محمود (إبراهيم)، **جغرافية الملذات، الجنس في الجنة**، طبعة 2، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 1998.

2. القواميس والموسوعات

▪ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين، تـ 711هـ/1057م)، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

3. المقالات

▪ قويعة (حافظ)، "المتخيل في كتب السيرة، طبقات ابن سعد نموذجا"، منشورات المهرجان الدولي للزيتونة بالقلعة الكبرى، سوسة، تونس، 1995.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017